

"الإسلام حضارة النص"

## النص

تحمل النص القرآني المؤسس عبئاً كبيراً في القرون الهجرية الأولى، حيث اتهم آباء الكنيسة المسيحية وفلاسفتها وأحبار اليهود (خاصة بعد اتخاذ الدولة الأموية دمشق المسيحية عاصمة لها)؛ الديانة الإسلامية الوليدة بعدم قدرتها أو قدرة نبيها على الاتيان بمعجزات يقدم بها نفسه مثل التي أتت بها سابقه من الرسل والأنبياء، وحين لم يستطع التراث الإسلامي تقديم معجزة مؤكدة لهذا الدين الحديث وفي مناوئة مستمرة وجب على القرآن ان يكون نصاً مُعجزاً حاملاً لهذا العبء.

الوحي:

هذا الإلهام والبصيرة الممتدة من الإله والتي لم تكن وفقاً على الأنبياء والرسل فقد أوحى الله للحواريين وأوحى للنحل وللنمل ولأم موسى؛ هذه المناجاة بغير حديث، كلمات الإله وعلاماته الموصولة حتى فناء العالم فينا. وليس من الضروري ان يكون الوحي مرسلًا فقط من الإله فقد أوحى الجن والانس بعضهم لبعض "وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا" سورة الانعام ١١٢. وأوحى زكريا الي قومه ان سبحوه بكرة وعشيا.

كذلك أوحى الله لمحمد فكان الوحي يأتي الرسول علي هيئة حلم أو صلصلة جرس أو في صورة ملاك مُنبأ أو من وراء حجاب أو يقع في قلبه فيلفظه، هذا التنزيل وما أراده الإله من معني يتلقاه المُرسل الأول ليفضي به لفظا الي أصحابه وحوارييه؛ وأننا ان صدقنا بالوحي فينبغي تصديقنا للفظ غير هاملين لتأثير وعي المُخاطب في فحوى الخطاب.

ولم يتوقف منتقدي الدين الجديد من علماء اليهودية والمسيحية كثيرا عند مسألة الوحي فقد اقرها ووعوها في معتقداتهم من قبل بما فيها رؤية الملائكة لأنها تحظي بنفس الواقعية في الكتاب المقدس.

أراد التراث لمحمد ان يكون وعاء خاليا (أمي) لحظة استقبال الوحي وهو التاجر المسافر شمالا وجنوبا في رحلات قريش وهو زوج خديجة احد اهم سيدات قريش وهو المُفكر الذي أتهم بكتابة القران من وحي خياله، لم يكن محمد جاهلا باللغة (يمكن ان يكون جاهلا بالكتابة حيث كان الكتبة قليلون وكانت الثقافة السائدة شفوية) وان اتهم كليمان هور ١٩٠٤ ان محمدا قد اخذ كلامه من شعر امية بن ابي الصلت (الذي حاول طه حسين

اثبات انه أي امية كلن لاحقاً لحياة محمد وان العكس قد حدث) مع بطلان منطقته لان كلاهما قد نهلا من نفس الاساطير والقصص التاريخية يؤكد ان محمد ابدا لم يكن أُمي بمعنى الجهالة.

الخطاب – النص:

القرآن نص خطابي حيّ تفاعل عمودياً (نزولاً وصعوداً) مع المرسل اليه تأثر به وأثر فيه، تغيرت احكامه في زمن الرسالة نسخاً او نسياً ليصبح متصلاً بواقعه مدركاً لديناميكيته. لم يكن نصاً مفارقاً ولا تاريخياً "قديمًا" بل كان منظومه للقيم في مدة ثلاث وعشرين سنة زمن الرسالة.

الاحكام والبشائر والنذر والعلامات كلها كانت من نسيج هذا المجتمع، السجع المستخدم في الآيات المكية بطولها وراحتها حيث اهل الشعر ورغبة الاله في الدعوة والميل؛ الي القطع الحاسم في الآيات المدنية حيث الغزوات والانتصارات.

عندما كان يُملي الرسول أول سورة المؤمنون علي عبد الله بن ابي السرح وهو من الحفظة، قال للرسول تعجبا "تبارك الله أحسن الخالقين"، فأمره ان يكتبها. (الاتقان السيوطي – نولدكه)، هذا الوحي بمرسله وملتقيه الأول ومُخاطبيه والفاعلين به وفيه بوقائعه واحداثه المروية والمنسية كلها وكلهم أضحوا هذا النص الذي بين أيدينا الان.

وفي محاولة دائمة للتقرب من النص، كانت التصنيفات المختلفة للآيات زمنياً: "مكية" ثم "مدنية" (مع صعوبة تمييز بعض السور كالفاتحة والضحى وغيرها باستخدام هذا التصنيف وأيضا فقد رأي بعض المستشرقين من أمثال William Muir, G. Wiel, Hurbert Grimme، وخالفهم Nouldeke ان بعض السور نزلت قبل البعثة حيث كان محمد يناجي فيها نفسه وأولها سورة العصر)، أو تقسيم السور حسب خطابها:

سور الإعلان الأول

السور التوكيدية

السور الواعظة

السور القصصية

السور الواصفة

السور التشريعية

من المؤكد ان المسلمين الأوائل كانوا غير منشغلين بهذه التحليلات حتي الفيلولوجية منها فقد كان النص واقع يومي في حياتهم يتحدث بلغتهم ولم تفصلهم عنه ايه ابعاد زمنية كما حدث مع معظم النصوص الدينية الأخرى.

### النزول والاملاء:

أختصم عمر بن الخطاب صحابي دخل الإسلام بعد الفتح الي رسول الله حين وجده يتلو آيات من القرآن بغير ما عهد فرد عليه الرسول "انفر الشيطان يا عُمر، القرآن كله صواب ما لم يجعل المغفرة عذابا والعذاب مغفرة"، وحديث الاحرف السبعة "أنزل القرآن على سبعة أحرف". ان كانت هذه المرويات حقيقة ام جدل اختلط فيه الديني بالسياسي فأن واقع الحال يؤكد ان النص المكي قد تنزل في مجتمع قريشي صغير قد تمكن من لغته وان أي خلاف قد حدث فإنه لاحق في المدينة التي كانت أكثر ديموغرافية بالعربية والأرامية (قال عُمر إنا لنرغب عن كثير من لحن أبي بن كعب) او حتى بعد وفاه الرسول حيث اختلطت الثقافات واللهجات وتمكنت الايدولوجيات السياسية من التراث.

من الواجب ان نعي أن السيرة النبوية لم يُدون منها شيئاً في حياة الرسول بما تحمله من أسباب النزول والاحداث اليومية الفاعلة في النص القرآني وان اول المخطوطات المُدونة كانت لابن إسحاق علي الأقل ٨٠ عام بعد الهجرة ولو أننا نستخدم هذا التراث -الظني نظرا لبعده التاريخي عن الحدث القرآني- لمعرفة كيفية تنزل القرآن وحفظه اذا يصبح التراث أيضا فاعلا في النص.

كان الحفظة قليلين في مكة وكان النسيان ممكناً وكان الرسول يُذكر الحفظة حيناً واخري يؤكد رفع الآية او نسخها (معظمها من أحاديث الاحاد) كآية لو ان لابن ادم واد من ذهب ... حيث قال الرسول لابن مسعود "لقد رفعت البارحة" (الاتقان) وآية الرضاعة عن عائشة.. وغيرها. وآيات النسخ منها ما رُفِع نصا وبقي حكما ومنها ما رُفِع نصا وحكما ومنها ما رُفِع حكما وبقي نصا.

### الجمع والتدوين:

اختلفت الروايات في زمن وكيفية البدء في جمع القرآن وهل هو في زمن أبوبكر(الذي كان حكمه سنتين وشهرين) حين اشتكى العائدون من معركة اليمامة توفي بعض الحفظة أو في زمن عمر(الذي كان حكمه عشر سنوات) حين علم اختلاف الناس في قراءاتهم بين الكوفة والبصرة ودمشق عنها في المدينة ومن ثم استدعي زيد بن ثابت لبدء عملية الجمع، وفي روايات الشيعة فأن علي قد قام بجمع القرآن بعد وفاة النبي مباشرة في

ثلاث أيام ، وتوجد رواية أخرى علي ان الجمع قد بدأ فقط في عهد عثمان وقصة ارتباطه بأبو بكر وعمر هو فقط لتعريف مكانتهما كخلفاء مقربون للرسول.

واعتمد زيد بن ثابت شاهدين لأثبات الآيات وكان يقال له في بعض الآيات ان حافظها قد سقط في معركة اليمامة كما حدث في آية (رجم الشيخ)، حيث يوجد قول لعمر "لولا أني خشيت ان اتهم بالحشو لكتبت آية الرجم في حاشية المصحف.

ما يلاحظ هو ان القرآن وحتى ولاية عثمان كان حق وملكية شخصية فقد عهد به عمر الي ابنته حفصة وكان مصحف فاطمة مع علي بعد وفاتها وكان عبد الله بن مسعود يعتبر مصحفه ملكية شخصية وغيرهما من الحفظة كابن أبي كعب وأبو موسى الأشعري والمقداد بن الأسود. وهذا له دلالة علي ان عملية الجمع كانت اجتهادا شخصيا وليس من جوهر العقيدة.

وفي سنة ٣٠ هـ اختلف المسلمون بين البصرة والكوفة ودمشق علي نسخ مختلفة من القرآن ونقل هذا الخلاف أبو حذيفة الي عثمان الذي بدوره جمع زيد بن ثابت وعبدالله بن الزبير وسعيد بن ابي وقاص وعبد الرحمن بن الحارث لنسخ مصحف حفصة الذي جمعه زيد سابقا واقره عثمان؛ الا ان اهل الكوفة رفضوا ذلك واصروا علي مصحف عبد الله بن مسعود.

هذه هي الرواية السائدة الا ان أسماء الأشخاص وعددهم مختلف عليه (فقط متفق علي زيد بن ثابت)، وكانت اللجنة كلها قريشية لان عثمان امرهم "اذا اختلفتم في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش فانه انما نزل بلسانهم"، وكانت اللجنة كلها اموية باستثناء عبد الله بن الزبير.

وفي عملية الجمع والترتيب والنسخ يمكن ملاحظة ما يلي -آخذا في الاعتبار ان اللجنة وعثمان لم يعرفوا الدقة الفيلوجية للغة:

- ترتيب السور كان حسب طول الصفحات وليس عدد الآيات فمثلا سورة الأعراف (رقم٧) تزيد بثلاثين آية عن سورة النساء (رقم٤) ورغم ذلك فان سورة إبراهيم والرعد والحجر التي لا يتعدى كل منها ثلاث صفحات تأتي قبل سور أطول منها بكثير وأيضا وضعت الانفال قبل التوبة، من الجائز ان شكل الصفحات وطريقة كتابة كل شخص من أعضاء اللجنة لا تتساوي في عدد الكلمات والسطور (اذ افترضنا ان عرب المدينة لم يكن لهم خبرة التدوين فيمكن ان نتفهم ان اللجنة قد استخدمت نفس طريقه الترتيب المتبعة في المشنا اليهودية حسب عدد الفصول)

- الحروف المقطعة التي تبدأ ٢٩ سورة ، قيل انها ذات معان سريانية او غنوصية ولكن هذا الرأي مردود عليه لأنه لم يتعجب الصحابة من هذه الحروف ولو تعجبوا منها لسألوا الرسول ولو سألوه لأجابهم وهذا يعني انها لم تكن موجودة زمن التنزيل. والرأي الاخر ان هذه الحروف كانت هوامش وضعها جامعي القرآن لتمييز من قام او قال في عملية الجمع وهذا موقف نولدكه وهرشفلد فمثلا م=المغيرة، ص=حفصة ، ز=الزبير ، ك=أبو بكر ، ه=أبو هريرة ، ط=طلحة ، ن=عثمان ، ح=حذيفة.... وغيرها.

وقد انتقدت عملية الجمع كثيرا في حينها وبعد الفتنة الكبرى ووصول الي عصور الاستشراق:

- انتقد بعض اتقياء المعتزلة لعن القرآن لبعض خصوم محمد علي انه لا يليق كونه تبليغا عزيزا.
- انتقدت فرق الميمونة من الخوارج سورة يوسف كونها تحوي قصة عشق.
- وانتقد الشيعة عدم قداسة علي واهل البيت كما يجب وقالوا انها حذفت عمدا بسبب أبو بكر وعمر مثل آية "ولقد نصركم الله ببدر" حيث ادعوا انها قد حذفت منها "بسيف علي". كما ادعي الشيعة حذف سورة بأكملها وهي سورة النورين (محمد وعلي) حيث قيل فيها "نوران واحد من الاخر".
- يري فايل ويخالفه كعادته نولدكه ان عثمان قد حذف آيات تتناول بعض افراد بني امية بالتعريض.
- اقر المتأخرين والقدامى بان المصاحف الأخرى قد بقيت - حتي بعد محاولة عثمان للتخلص منها - فبقي قرآن أبي حيث تختلف ترتيب السور واطافة سورتين هما "الخلع" و "الحفد" حيث فال السيوطي انها قد رُفعا وتحولا الي دعاء القنوت واعتبرهما نولدكه غريبتين عن القرآن للغتهم الفريدة وتراكيبها المعقدة. ونسخة ابن مسعود اقل بثلاث سور (الفاحة والفلق والناس).

التفاسير:

اعتمد التراث الإسلامي على النقل والسند في ثقافة شفوية يُنقل فيها العلم من المعلم عن طريق الكلام، ولم تلعب سلسلة الشهود في كتابة تاريخ ورصد تراث أي أمة كما حدث في الحضارة العربية الإسلامية، ثم ارتباط هذا التراث بالشعر والمرويات العربية التي مهدت لارتباط التاريخ العربي بالإسلامي.

اول من كتب سيرة النبي هو عثمان بن عفان وعروة بن الزبير بن العوام وشرحبيل بن سعد ولكن اول ما وصلنا كان لمحمد بن إسحاق ٨٠-١٥١ هـ ثم كتاب المغازي للواقدي ١٣٠-٢٠٧ هـ . وأول من اهتم بالحديث النبوي هو مسند بن حنبل الذي فاقه تلميذه البخاري ثم من بعده تلميذ آخر هو مسلم بن الحجاج النيسابوري.

ما نلاحظه في روايات التراث الإسلامي هو تراجع الصحابة الكبار من الجيل الأول عن المرويات وبروز الجيل الثاني مثل عائشة (كانت ١٨ عام حين توفي النبي) وعبد الله بن عمر ثم ابي هريره وانس بن مالك وابن مسعود ولكن اهمهم على الاطلاق هو بن عم النبي بن عباس الذي كان عمره ١٣ عام حين توفي النبي (الذي لم يكن له أي دور سياسي غير انه انزوي في أحضان الامويين باغداقات مالية نظير تقديمه للدرس والتأويل والتفسير من الرؤية الاموية) وقد ذُكر بن عباس ٣٨ مرة عند ابن إسحاق و٢٨٦ مرة عند الطبري.

وبخلاف الديانات الأخرى التي تم كتابة تراثها سنين عديدة بعد احداث عصر النشوء مما أتاح تجنب أي هوي شخصي (باستثناء التمجيد المبالغ فيه للأباء المؤسسين)، فبالنسبة للإسلام فقد أراد الصحابة وعائلتهم بأهوائهم وخلافاتهم الشخصية والعائلية القديمة والمُحدثه ان تكون متمثلة في التفسير القرآني وتأكيدها بالأحاديث الشرعية.

التفاسير الشيعية واهمها تفسير الباقر (محمد بن علي بن الحسين)، ففي سورة الشمس: الشمس هي محمد والقمر على والنهار الحسن والحسين والليل الامويين، وكلمة القربي في سورة الشورى هي العائلة العلوية والشجرة الملعونة في سورة الاسراء فتشير الي بني امية، وكلمة خير وعدل في سورة النمل تشير الي علي اما الجبت والطاغوت هما ابي بكر وعمر. (الجبت هو اصل كلمة Egyptبلاد القبط وهو آلة فرعوني قديم).

ومع ان معظم تفاسير الشيعة لا قيمة لها نظرا لتأويلاتهم المغالية المواكبة للظروف التاريخية المتفهمة، ولكن لا يمكن اغفال دورهم فمثلا كتاب الصافي في تفسير كلام الله الوافي لمحمد محسن الكاشاني قد أضاف مدلولات صوتية وباطنية اخذها عنه الصوفيون رغم انكار السيوطي لها.

وفي التفاسير الصوفية التي اهتمت بعلم المدلولات فقد بين جلال الدين الرومي ان للمعاني القرآنية طبقات منها (الالفاظ السهلة وما يأخذ بالألباب ثم المعني الباطني السماوي وما يعرفه الا الله)، واهتمت الكتب الصوفية بالرمز والإشارة وادعت ان النصوص ليست علي ظواهرها واما تحويه من إشارات خفية لا يدركها الا أصحاب

الكشف (ومن حكاياتهم في غير باب التفسير أن بعضهم مر برجل يقول لآخر: هذا العود لا ثمرة فيه فلم يعد صالحا إلا للنار، فجعل يبكي ويقول: إذن فالقلب غير المثمر لا يصلح إلا للنار)

أهمل النقد التاريخي العلمي للأحاديث والمرويات واكتفي بالسند والمتن حيث لاحظ المتأخرين من علماء اللغة والتاريخ ما يلي:

- المراعاة غير الكافية لمدلول الكلمات.
- تداخل المصادر اليهودية والمسيحية.
- كأن التفاسير تريد ان ترد النص القرآني لأحداث معاصرة لاستخدامه في أغراض سياسية.
- استخدام التفاسير في احداث مستقبلية (كقول ابي امامه الباهلي انه سمع ان الرسول أوضح ان سورة القمر نزلت في فرق القدرية) الرازي.
- بعض المعاني والكلمات لم تكن مستخدمة في تلك العصور التاريخية المستخدمة في التراث.